محاضرات في
الأدب المغربي القديم

تخصص: أدب عربي قديم

سنة ثانية ماستر

المجموعة الثانية

الأفواج: 3 ،4

د. منصف شلي

المحاضرة الأولى

فتح المغرب الكبير وتعريب السكان

(القسم الأول)

1-إفريقية والمغرب المصطلح وحدود المفهوم:

وقد استعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنقطة فنجد هيرودوت يطلق لفظ أفريكا على كل ما يلي مصر غربا من البلاد حتى المحيط الأطلسي، فلّما غلب الرومان الفينيقيين على هذه النواحي، أخذوا عنهم هذه التسمية فأطلقوا التسمية ولاية إفريقية القنصلية على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا (قسنطينة اليوم) [1].

ثم اتسع معنى هذا اللفظ في العصر البيزنطي فكانت إفريقية البيزنطية تشمل كل ما دخل في طاعة الروم من هذه القارة من برقة (ليبيا) إلى طنجة، وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ إفريقية وتحديدهم الأول لمعناه [2].

قال الجغرافي العربي الكبير محمد بن عبد المنعم الحميري عن إفريقية: «عمل كبير عظيم في عرب ديار مصر. سميت بافريقس بن أبرهة ملك اليمن لأنه غزاها وافتتحها، قبل كان بالشين المعجمة، ثم عرّب بالسين، وقال قوم:

معنى إفريقية صاحبة السماء، وقيل سميت بافريقس بن إبراهيم عليه السلام من زوجه قطورا، وقيل: أهل إفريقية من ولد فارق بن مصر» [3]. ثم استرسل فقال: «وطول إفريقية من برقة شرقا إلى طنجة غربا وعرضها من البحر إلى الشرق» [4].

أما المراد بالمغرب في اصطلاح الجغرافيين العرب والمسلمين القدماء فهو كما يلي: المشرق غربا وعليه فالعالم الإسلامي القديم يحتوي على مشرق ومغرب.

يقول الجغرافي المقدسي (336-380هـ) «وقد جعلنا المغرب مع الأندلس كهيطلة وخراسان، غير أنّا لم ندخل الأندلس فنكورّها، فأول كورة من قبل مصر برقة ثم إفريقية ثم تاهرت ثم سجلماسة ثم فاس، ثم السوس الأقصى ثم جزيرة صقلية تقابل إفريقية والاندلس وراء البحر على

---

[1] _ المصدر نفسه: ص 2.

[2] _ المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[3] _ الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ط2، 1984م، ص 47. 48.

[4] _ المصدر نفسه: ص 47.

أرض الروم ناحيتان لفاس، طنجة والزاب»[5] .

وقال ابن عذاري المراكشي (ت بعد 712هـ): «إن حدّ المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب وحدّه مدينة سلا» [6].

والظاهر من قول كل الجغرافيين والمؤرخين القدماء أنهم اتخذوا مصطلح المغرب في أول الأمر تحديا جغرافيا لكل ما يقابل المشرق من البلاد الإسلامية ولهذا فقد أدخل فيه بعض المؤلفين مصر والأندلس وصقلية الإسلامية بينما أخرج بعضهم هذه الأقطار الأخيرة من هذا المفهوم.

والغالب أن معنى لفظ المغرب انتهى عند المؤرخين والجغرافيين إلى أنه يشمل كل ما يلي مصر غربا حتى المحيط، ثم يقسمّونه بعد ذلك إلى أجزاء: هي برقة وطرابلس ثم إفريقية حتى نهر ملوية، ثم المغرب الأوسط. ثم المغرب الأقصى فالسوس، ومن هنا صحّ استعمال لفظ المغرب للدلالة على الإقليم كلّه بعد ذلك إلى الأقسام المشار إليها [7].

وحينما نتحدث عن المغرب الإسلامي الكبير أو «الغرب الإسلامي فهو ينصرف إلى مجموعة جغرافية بالغة التناسق فيها بينها. وتقع على جانبي غربي المتوسط وتمتد حتى سواحل الأطلنطي وتشمل شمال إفريقيا وشبه جزيرة إيبيريا» [8].

ويرى المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (1894-1956) أن الغرب الإسلامي مساحة من العامل القديم، توطئ فيها الإسلام حاملا معه بناءه الاجتماعي إلى أهلها، ومثله الخلقية، والثقافة التي يمثلها ولكن هذه الأرض في الوقت نفسه نائية وبعيدة عن مركز الإسلام بالنسبة إلى غيرها التي شهدت ظهوره وطلائع وثبته الرائعة التي بلغها فيما بعد[9].

---

[5] _ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حررها وقدم لها: شاكر لعيبي، دار السويدي، الإمارات العربية، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، (مادة المغرب).

[6] _ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج س كولان، ليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ج1، ص 5.

[7] _ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص 4.

[8] _ ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار العالم العربي، القاهرة، مصر، 2009، ص 13.

[9] _ الحضارة العربية في إسبانيا، ص 14.

2-الفتح الإسلامي للمغرب الكبير:

يعدّ دخول الإسلام إلى منطقة المغرب الكبير فتحا دينيا وحضاريا عظيما «فقد كان فتح المغرب من الفتوح الحاسمة التي استتبعت معها نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الشرق والغرب»[10].

وسيكون لهذا الفتح أثر طيب على كل ربوع الشمال الإفريقي من النواحي الحضارية والثقافية والعلمية والأدبية فضلا عن الدينية.

وبداية هذا الفتح المبارك كانت سنة إحدى وعشرين من الهجرة حينما افتتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية وعموم مصر في زمن الخليفة عمر بن الخطاب وفي سنة (23هـ) افتتح بلاد طرابلس (طرابلس ليبيا اليوم)، وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بما أفاء الله عليه من الفتح، واستأذنه في أن يواصل الفتوحات في بلاد إفريقية، فأمره بالانصراف عنها كي لا يغرّر بجنود المسلمين في هذه البلاد المجهولة آنذاك فأمر عمر العسكر بالرحيل قافلا إلى مصر[11] .

وبعد تولية عثمان بن عفان الخلافة عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر و ولاّها عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة (28هـ) ولم يشع نور الإسلام وشعاع العربية في ربوع إفريقية سوى مع الخليفة عثمان بن عفان حيثما حشد جيشا كبيرا فيهم أشراف بني أمية وبعض الصحابة وأشراف مكة. منهم: مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير العوام وعبد الرحمن بن أبير بكر وتحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح تم فتح إفريقية سنة (27هـ) [12].

وفي جمع غفير من الصحابة والتابعين والمجاهدين الصالحين من الرعيل الأول وفي جيش قوامه عشرون ألفا من الجند كان اللقاء في موضع بسطة (في تونس الحالية) مع جيش البطريق جرجير (حاكم البيزنطيين) المكون من (120 ألف مقاتل). كان النصر حليف المسلمين حيث اندحر جيش جرجير وقتل على يد عبد الله بن الزبير العوام [13]. ثم ساروا حتى وصلوا قرطاجنة

---

[10] _ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص 1 من المقدمة.

[11] _ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج1، ص 8/ العباس الناصري السبلاّوي (315هـ): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، اعتنى به: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007م-1428هـ، ج1، ص 65، 66.

[12] _ المصدران السابقان على التوالي: ج1، ص 8-9، ج1، ص 36-37 وك ذلك ص: 67 وما بعدها.

[13] _ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 10.

فحاصروها وافتتحوها وغنموها ورفعوا لواء الإسلام في ربوعها.

وفي سنة (33هـ) كانت غزوة عبد الله بن سعد بن أبي سرح إفريقية للمرة الثانية بعدما نقض أهلها العهد.

ثم غزا جيش معاوية بن حديج السكوني ثلاث مرات، سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان ثم في سنة (40هـ) في خلافة علي أو في سنة (41هـ) حسب اختلاف الروايات ثم في سنة (50هـ) أو (45هـ) حسب بعض الروايات كذلك[14].

ثم غزا الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهري وافتتح غدامس سنة (62هـ) [15]. ثم عقبة بن عامر الجهني (توفي في سنة 58هـ) ثم رويفع بن ثابت الأنصاري في سنة (47هـ)، ثم عقبة بن نافع مرة أخرى في زمن معاوية بن أبي سفيان وذلك سنة خمسين من الهجرة وقتل من كان بها من الروم وأصناف البربر و الأفارقة حيث اختطّ القيروان ومسجدها العظيم [16].

ولم يلبث أن ولّي مسلمة بن مخلد علي مصر وإفريقية في زمن معاوية حتى عينّ أبا المهاجر دينار واليا على إفريقية حيث واصل الفتوحات في المغرب الأوسط (الجزائر) إلى حدود المغرب الأقصى اليوم [17].

فبعد وفاة الخليفة معاوية سنة ستين من الهجرة (60هـ) تولى ابنه يزيد الخلافة حيث ولّى عقبة بن نافع الفهري سنة (62هـ) الولاية الثانية. على بلاد إفريقية والمغرب كلّه.

لم يتم فتح المغرب كلّه إلا في زمن يزيد بن معاوية سنة (62هـ) وعلى يد الفاتح المظفر عقبة بن نافع ثم فتح كل ربوع المغرب الكبير حيث أدخل الإسلام إلى قراه وأرباضه. وهذا هو الفتح الحقيقي للمغرب وما سبقه إنما كان تمهيدا له [18].

---

[14] _ المصدر نفسه: ص 16 وما بعده. أبو زيد محمد بن عبد الرحمن الأنصاري الدباغ (ت 696هـ): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2005م-1426هـ، م1/1/ص73.

[15] _ الناصري السلاّوي: الاستقصا، ج1، ص 69، 70.

[16] _ الدباغ القيرواني: معالم الإيمان ج18/1 ص 42.

[17] _ الناصر السلاّوي: الاستقصا، ج1، ص 70، 71.

[18] _ الناصر السّلاوي: الاستقصا، ج1، ص 71 وما بعدها وفيها تفصيل حول ولاية عقبة الثانية وإتمام مسار الفتح حتى المغرب ومقتله، ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 23 وما بعدها.

وقد واصل عقبة بن نافع ميار الفتح و استكمله من قرطاجنة إلى باغاية وجبال أوراس ثم مدينة المنستير وكانت من أعمال الروم البيزنطيين، ثم غزال الزاب حتى واد المسيلة فهزم جموع البربر المتحصنين والمارقين من سلطان الدين.

وقتلهم وخلّ جمعهم ثم إقليم تاهرت حيث اجتمع عليه الروم والبربر فغلبهم وهلك سلطانهم وأحلّ بهم القيعة العظيمة ثم تقدم نحو طنجة وأحوزاها ثم رجع إلى المغرب الأوسط فطوّف به وانهزم في دكالة (مقبرة الشهداء). ثم طنبة (بريكة حالي) ثم تهودا (قرب مدينة سيدي عقبة في بسكرة).

وكان كسيلة داهية البربر ممّن وقفوا في خلق كثير ضد جموع المسلمين وحاربهم وبذلك في ذلك كل جهد ونفيس.

وكان قبل ذلك صديقا لأبي المهاجر أسلم ثمّ ارتدّ وقتل عقبة وأبا المهاجر وأسر طائفة من أصحابها نفداهما صاحب (قفصة) وبعث بهم إلى زهير بين قيس البلوي، وكان عقبة قد خلّفه أميرا على القيروان[19].

وبلغ من جرأة كسيلة أن حاصر القيروان سنة (64هـ) مع جميع أهل المغرب في خلاف عبد الملك بن مروان فأشاروا عليه بزهير بن قيس البلوي وكان ببرقة فوجه لقتال كسيلة.

وفي سنة (69هـ) أقبل زهير بن قيس البلوي إلى إفريقية لقتال كسيلة وجيش البربر والروم حيث جرت معارك ضارية حتى واد ملوية بالغرب الجزائري. وقتل زهير ببرقة فقام بالأمر بعده حسان بن النعمان سنة (78هـ) فقاتل كل الروم والبربر في باجه وبونة وغيرهما.

---

[19] _ الناصر السلاّوي: الاستقصا، ج1، ص 79 وما بعدها.

محاضرات في
الأدب المغربي القديم

تخصص: أدب عربي قديم

سنة ثانية ماستر

المجموعة الثانية

الأفواج: 3 ،4

د. منصف شلي

المحاضرة الثانية

فتح المغرب الكبير وتعريب السكان

(القسم الثاني)

واصل حسان بن النعمان مسار الفتح والتقى مع الكاهنة ملكة البربر في مدينة باغية ووادي مسكيانة فانهزم المسلمون ووقع ملك إفريقية خمس سنين في يد الكاهنة، وقتلها حسان بن النعمان واستتم له الأمر بفتح كل إفريقية وتخلصها من الروم وكفّار البربر في سنة (82هـ) حيث دوّن الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معه على دين النصرانية [1].

وفي زمن الوليد بن عبد المالك في سنة (87هـ) قدم موسى بن نصير واليا على إفريقية فقبض على السلطة بيد من حديد وضبط الشؤون واستصلح الأحوال، فأصبحت البلاد تمرح في بحبوحة من الأمن والرخاء وكانت له سياسة حكيمة في عتق العبيد.

ولسنا بحاجة إلى زيادة تفصيل وبسط الحوادث التاريخية المتسارعة والمتعاقبة في فتح المغرب وضبط جهاته، فهي مبسوطة في المصادر والحوليات التاريخية العربية المختلفة مثل: الكامل في التاريخ لابن الأثير (630هـ) وتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (310هـ) والبيان المغرب لابن عذاري المراكشي والاستقصا للناصري السلاّوي وغيرها من المصادر.

وخلاصة الأمر كلّه أن المغرب الكبير قد دان بالإسلام وافتتحت مدنه وقراه وحواضره وأذعن المغاربة لدين الحق، وصار البربر في الشكال الإفريقي دعاة للدين الإسلامي الحنيف، حماة للعقيدة وبقي المغرب تابعا لراية الخلافة الإسلامية في المشرق. وكان في هذه الفترة المسماة (عصر الولاة). ولاية تخضع لسلطة والي يعنيه الخليفة في المشرق، وذلك من بداية الفتح وحتى ولاية موسى بن نصير، مرورا بعدة ولاة تعاقبوا على حكمه، وحتى ولاية روح بن حاتم الذي ولاّه الخليفة العباسي هارون الرشيد (ت 193هـ)[*] فقدم القيروان منتصف سنة إحدى وسبعين ومائة، وفي أيامه كما يقول ابن خلدون

«انخضت شوكة البربر واستكانوا للغلب وطاعوا للدين فضرب الإسلام بجرانه» [2].

---

[1] _ الناصري السلاوي: الاستقصا، ج1، ص 82، وحول ولاية حسان عنده، ص 80 وما بعدها. ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 34 وما بعدها.

[*]– حول ولاة المغرب يراجع: ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 34-90/ عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق: أحمد ميلاد، محمد إدريس، تقديم ومراجعة: حمادي الساحلي دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1990، 1410هـ، ص 117-198.

[2] _ نقلا عن الناصري السلاّوي: الاسقصا، ج1، ص 110.

3-فضائل إفريقية وأهل المغرب الكبير:

تعد منطقة المغرب الكبير محورية في العالم الإسلامي في العصر الوسيط، وحتى وقتنا هذا. كما كانت جسرا مهما في فتح الأندلس ودخول الإسلام إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وصقلية. فقد تمّ الأمر في معظمه بسواعد وهمم شعوب المغرب الكبير الذين استحكم الإسلام في قلوبهم فأبوا إلا أنّ ينهضوا بمسؤولياتهم وواجباتهم اتجاه هذا الدين الجديد، ولهذا فقد شهد المغرب ومنطقة شمال إفريقيا أفواجا من الرجال الفاتحين والصالحين والعلماء والفقهاء وعلى مدار أجيال وعقود ومئات السنين ممّن كان لهم صيت ذائع في عالم الوسيط الإسلامي.

وقد ظلّت هذه المنطقة (المغرب) محل تميّز ومفاخرة في عالم الإسلام وحتى اليوم وقد رويت بعض الأحاديث والآثار في فضل المغرب بعضها صحيح.

فقد نزل بإفريقية أكثر من سبعة وعشرين جليلا منهم من شهد بدرا. وكثير من التابعين وتابعي التابعين وفضلا من القوم العبّاد والعلماء والزهّاد والنسّاك [3].

فعن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين علي الحق حتى تقوم الساعة» [4].

وبعث رسول الله سرية ففصلوا فذكروا لرسول الله، فقال: «لكن إفريقية أشدّ بردا وأعظم أجرا» وفي رواية أخرى: «إن البرد الشديد والأجر العظيم لأهل إفريقية»[5] .

4-استعراب المغرب الكبير: الأسباب والعوامل:

سجّل المغرب الكبير امتدادا جديدا للثقافة العربية والإسلامية التي شهدت توهّجا كبيرا وبسطت سلطانها وظلالها الوارفة على كل ربوعه، ولم تكن عملية التعريب للمغرب الكبير سهلة، فقد عانت الثقافة العربية في بداياتها حيث كانت تخطو خطوات وئيدة، وهو أمر طبيعي ومنطقي لأنها بالكاد قد تجاوزت مرحلة التكوين والنمو.

---

[3] _ انظر كتاب الدباغ القيرواني: معالم الإيمان م1/1/ ص 63 وما بعدها وفي غيره من المصادر.

[4] _المصدر نفسه ص 39-41/ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 6، 7.

[5] _ الدباغ: معالم الإيمان، م1/1/ص 39.

ولكن هناك عوامل كثيرة وأسباب متعددة أسهمت وساعدت على نشر الثقافة العربية في ربوع المغرب الكبير منها:

- ✓ طبيعي أن يقبل أهل المغرب الكبير على تعلم اللغة العربية لأنها أداة الدين الجديد، ولسان القرآن الكريم، فلا تصح العبادة ولا تستقيم إلاّ بها وما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب.
- ✓ بذل ولاة المغرب الكبير ومختلف قادته وأولوا الأمر وكل الفاتحين، ومنذ دخول الإسلام إلى هذه المنطقة كلّ جهودهم لنشر الإسلام وتعليم العربية وتسخير كل ما يخدم هذه القضية على المستوى البشري والمادي، فاللغة العربية إضافة إلى كونها لغة الدين الجديد، فهي لغة المكاتبات والمخاطبات الرسمية بين الخلفاء والولاة وقواد الجيش ومختلف النواحي.

وقد كان لبعض القرارات المصيرية التي اتخذها بعض الخلفاء والولاة دورا حاسما في إرساء العربية لغة الدين الجديد ولغة العلم والحضارة والمدينة والدولة الجديدة فهذا حسان بن النعمان وقد استقام أمره فدوّن الدواوين وكتب الخراج (6).

وهذا الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (61-101هـ) وقد أرسل بعثة مكونة من عشرة فقهاء يرأسها التابعي الجليل عبد الله بن يزيد المعافري (100هـ) إلى أهل المغرب الكبير لتعليمهم شؤون دينهم وتفقيههم (7). فقد كانت هذه البعثة فتحا علميا وثقافيا وحضاريا كبيرا.

- ✓ تأسيس المساجد الجوامع، وإنشاء كثير من المساجد ومختلف الرباطات المتنوعة في ربوع المغرب الكبير وإفريقية التونسية والمغربين الأوسط والأقصى وليبيا حيث اضطلعت هذه المساجد في النهوض بالدراسات الشرعية والتي قوامها العربية.

---

(6) _ الناصري السلاّوي: الاستقصا، ج1، ص 82.

(7) _ ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، الخليفة الزاهد، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1985م، ص 107-121.

ومن ثمّ اللغوية والأدبية، ولم يكن بدّ يومئذ من تعلّم اللغة العربية بوصفها أداة العبادة ولغة العلم والحضارة. ولسنا بحاجة إلى التذكير بالمسجد الجامع في القيروان والذي أسسه عقبة بن نافع في منتصف القرن الأول الهجري، ومساجد القيروان السبعة القديمة الفاضلة (مسجد الأنصار، مسجد الزيتونة، مسجد أبي ميسرة، مسجد الحبلّى، مسجد حنش، مسجد علي بن رباح اللخمي، مسجد السبت، مسجد الخميس، مسجد عبد الله) [8].

- ✓ تأسيس مختلف المدن والحواضر المنتشرة في ربوع المغرب الكبير مثل: طرابلس، برقة، القيروان، تاهرت، تلمسان، سلا، طنجة، فاس وغيرها من الحواضر التي كانت موطن الإسلام والعلم والحضارة. وكانت مقصد الوافدين من العلماء وطلبة العلم ورواد المعرفة والتجارة. وكانت عبر تاريخها الحضاري الطويل منار إشعاع علمي وثقافي كبير حيث ازدهرت في كنفها كل الدراسات بما فيها اللغوية وكانت محطّ أنظار ومستقر لكثير من سكان المغرب الكبير ومن البربر والبدو الراغبين في تعلّم لغة الدين الجديد ممّا ساعد على عملية الاستعراب على نطاق واسع.
- ✓ الوافدون الجدد إلى المغرب الكبير بعد الفتح الإسلامي من عرب المشرق وما اضطلعوا به من حدر حضاري كبير ونشر اللغة العربية وقد قامت مصاهرة بين الطرفين وعلى نطاق واسع، ممّا كان له بالغ الأثر في تقوية الصلات بين الجانبين في جميع المجالات.
- ✓ الرحلات العلمية والثقافية بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه، فقد شكّلت هذه الرحلات جسرا تواصليا كبيرا وعلى مدى عشرات بل مئات السنين، ممّا كان له بالغ الأثر في عملية الاستعراب، وقد جلبت هذه الرحلات العلمية استقرار كثير من العلماء في بلاد المغرب الكبير منهم: الفقهاء والأدباء واللغويون والمحدثون وخاصة في حواضر إفريقية مثل: القيروان، حيث تخرّج عشرات الطلاّب والعلماء وبالمثل كانت رحلات المغاربة إلى المشرق بغرض العلم والحج والتقديس، مما ساعد على نشر اللغة العربية.

---

[8] _ الدباغ: معالم الإيمان، م1ن 1ن ص 58-63.

محاضرات في
الأدب المغربي القديم

تخصص: أدب عربي قديم

سنة ثانية ماستر

المجموعة الثانية

الأفواج: 3 ،4

د. منصف شلي

المحاضرة الثالثة

ملامح الحياة الأدبية في المغرب الكبير في عصر الولاة

شهد المغرب الكبير بعد الفتح الإسلامي وبعد استعراب أهله وسكّانه نهضة ثقافية وعلمية وأدبية اقتضتها الحياة الجديدة ومتطلبات الدين الجديد.

وكما ألمحنا إلى ذلك سابقا، فقد استغرب سكان المغرب لسانا وتفكيرا وأسلوب حياة، وكان لكلّ ذلك أثره في الحياة الأدبية والفنية.

وكانت النهضة الأدبية في عصر الولاة قد بدأت ترسم طريقها بخطوات وئيدة ولكنّها ثابتة نحو هدفها المنشود وهو النهوض والاكتمال الفني والإسهام والتميّز.

والأسباب نفسها التي أدّت إلى استعراب سكان المغرب الكبير هي نفسها –تقريبا– التي أدت إلى قيام نهضة أدبية مع اختلاف بعض تفصيلاتها.

ورغم أنّ الحياة الأدبية قد تطورت في القرن الثاني الهجري مقارنة مع ما كانت عليه في القرن الأول، فإن تأخرها في العقود الأولى التي أعقبت الفتح خاصة لها أسبابها منها:

– طول مدة الفتح الإسلامي وما صاحب ذلك من اضطرابات سياسية.

– اهتمام الفاتحين كان مصروفا لنشر الإسلام بين السكّان البربر وفي ربوع المغرب الكبير.

وقد حفظت لنا المصادر التاريخية أبياتا للصحابي الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام قالها في ابنة جرجير (غريغوريوس) بعد الفتح وقد بلغه أنّ أباها قد نحلها العرب لما سألته ذلك.

يا ابنة جرجير تلقي نِحلتك لقيت بالنّحلة ثكلى أبتك.

لتأخذن في الطريق عقبتك لتسقين شرّ ماء قربتك.

شر عجوز بالحجاز ربتك[1].

وإذا أردنا أن نستقصي أولى النماذج الأدبية في المغرب الكبير في هذه الفترة المبكرة وجدنا أن أغلبها نثريا حيث اقتضت طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية الجديدة ذلك.

وقد أسهم رجالات المشرق في هذه الفترة في الحيلة الأدبية خاصة الولاة والقادة الذين تناولوا على حكم إفريقية والمغرب، وكذا قادة الجيوش وعمّال الأقاليم والولايات، فعلى أيديهم ظهرت أولى النماذج

[1] _ الدباغ: معالم الإيمان، م1/1/ص 67.

النثرية في المغرب الكبير.

فقد أدّت الفتوحات الإسلامية في المغرب الكبير وخاصة في القرن الأول للهجرة وما صاحب ذلك من اضطرابات وفتن إلى ظهور نوع من خطب الجهاد نسبت إليه من أجل استثارة حماسة الجنود الفاتحين وكذلك ظهور الرسائل التي تنشد الوحدة الإسلامية وتشدّد على الاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف وتبيان عواقبها ومن قبيل ذلك خطبة عقبة بن نافع الفهري في جموع جنده ومحاربته في تاهرت سنة خمسين للهجرة وقد اجتمعت عليه الروم والبربر فقام في الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس إنّ أشرافكم وخياركم —الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا سول الله بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من ربّ العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة، وإنّما بايعتم ربّ العالمين وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا البلاد إلاّ طلبا لرضاه، وإعزازا بدينه، فأبشروا فكلّما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى. وربكم عز وجل لا يسلمكم فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم أولى بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوّكم على بركة الله وعونه»[1].

والملاحظ على خطبة عقبة بن نافع هذه أنها تدخل في باب الفتن والندب إلى الجهاد، وعادة ما يتميز هذا النوع من الخطب-كما هو الحال في هذا النموذج-الاستيحاء من التاريخ الإسلامي (بيعة الرضوان التي ذكرت في الخطبة)، والاستيحاء من الواقع.

ولأنّ موضوع الخطبة هو الجهاد والتذكير بثوابه فإن صاحب الخطبة يحشد كل وسائل الإقناع في سبيل ذلك حيث لم يشغل الموضوع الرئيسي سوى ثلاثة أسطر فقط، كما أنّ العفوية والتلقائية ظاهرة بين ثنايا كلمات هذه الخطبة.

كما يلاحظ ذلك التفاوت البلاغي بين سطور الخطبة الملقاة التي بدأها بأسلوب النداء من أجل لفت الانتباه فالموقف يقتضي ذلك.

ولأنّ الأمر جلل فقد كان الأسلوب مباشرا وغاب الخيال ومختلف الصور البيانية ويمكن تحديد مميزات

---

[1] _ أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق: بشير البكوش، ومراجعة: محمد المطوي العروسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1999، ج1، ص 37.

الخطبة في الآتي:

- خفوت التصوير الخيالي.
- المنزع العقدي والاستدلالي واضح في الخطبة من أجل التوضيح والاستبانة والإقناع
- خفوت الانفعالات والأخذ بالروية والحكمة.

ولما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة وكان واليا على إفريقية والمغرب كلّه...جمع علماء إفريقية وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها في الدين فكتبوا له هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون وجاء فيها: «من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجة أما بعد: فإنّ أهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه محمد يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: آمرة وزاجرة ومبشرة ومنذرة ومخبرة ومحكمة ومتشابهة وحلال وحرام، وأمثال.

فآمرة بالمعروف وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة ومنذرة بالنار ومخبرة بخبر الأولين والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها.

وحلال أمر أن يؤتى وحرام أمر أن يجتبن، وأمثال واعظة فمن يطع الآمرة وتزجر الزاجرة، فقد استبشر بالمبشرة وأندرته المنذرة ومن يحلل الحلال ويحرّم الحرام، ويردّ العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله مع طاعة واضحة ودنيا صالحة، فقد فاز وأفلح وأنجح وحيا حياة الدنيا والآخرة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

والملاحظ على رسالة الوالي حنظلة بن صفوان الكلبي (124هـ-127هـ) إلى خوارج طنجة أنها تحمل بلاغة كبيرة وقد اتسمت بالتركيز على المحاور الكبرى للدين الإسلامي الحنيف والتي عليها مدار الدنيا والدين، ولهذا فقد اتسمت بالتلقائية والتركيز على الهدف الأسمى، وهو وحدة المسلمين ونبذ كل خلاف وجمع هذه الأمة، وهي من أبلغ جوامع الكلم الذي قيل في هذه الفترة. حيث ذكرت بأقوال أهل العلم وما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة في المسائل الخلافية وهو استيحاء مباشر من قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)**[2].

---

[1] _ المالكي: رياض النفوس، ج1، ص 103.

[2] _ سورة النساء، الآية: 59.

إذا فهي خطبة جامعة مانعة حوت أمورا عليها مدار الدنيا والدين ولهذا فقد غلب عليها الأسلوب المباشر والإيحائي في جوانب أخرى، كما تتسم بطابع المجمل والمبين معا.

وما يلاحظ على هذه الخطبة أن تأليفه كان جماعيا وليس بيد كاتب واحد وهي نادرة في تراثنا الأدبي العربي والمغاربي.

ونبقى في هذه الفترة وبالضبط في سنة (64هـ) حينما دخل القائد البربري كسيلة القيروان بعد أن اجتمع إليه أهل المغرب قاطبة فقام زهير بن قيس البلوي والى إفريقية خطيبا في الناس بعد أن عظم البلاء على المسلمين فقال خطبة بليغة جاء فيها: «يا معشر المسلمين، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد من الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك»[1].

وكانت المكاتبات الرسمية نشطة في هذه الفترة لنشاط الحياة السياسية وتشعّبها، إلاّ أنها قد صارت أكثر تنظيما وتوسّعا، حيث كانت رسائل الأمر والتكليف والتقليد والاستشارة والتولية والتهنئة، وكذلك الانقياد في الطاعة تنتشر سراعا في المغرب الكبير.

وكانت الكتابة الديوانية أوضح مثال على ذلك مثال: مكاتبة الخلفاء والأمراء والملوك والوزراء والولادة والعمال وقادة الجيش.

فهذا خالد بن أبي ربيعة الإفريقي (ت140هـ) وكان أديبا كبيرا له مكانة في الترسّل والإنشاء وهو الذي حرّر الكتاب الذي بعث به عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يعترف له فيه بالطاعة وحمله إليه، وقابل به عبد الحميد الكاتب، كما كتب كذلك كتاب خلع الدولة العباسية من طرف عبد الرحمن بن حبيب وقرئ في سائر منابر إفريقية[2].

وكانت له رسائل مجموعة في الأدب بلغت نحوها مائتي ورقة كما يقول ابن النديم [3].

وهذا عبد الرحمن بن زياد المعافري (ت سنة 161هـ) وقد ولي قضاء إفريقية من قبل الامويين وكتب إليه بذلك مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية جاء فيه: «وقد ولاّك أمير المؤمنين الحكومة والقضاء بين

---

[1] _ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 30ن 31.

[2] _ الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: محمد زينهم عزب، دار الفرجاني، القاهرة، مصر، ط1، 1414هـ/1994م، ص 77.

[3] _ الفهرست، قابله على أصوله: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن 1430هـ/2009م، م1/2/ص 366.

أهل إفريقية وأسند إليك أمرا عظيما وحمّلك خطبا جسيما فيه دماء المسلمين وأموالهم، وإقامة كتاب الله عز وجل وسنة نبيه والذبّ عن ضعيفهم من قويّهم وإنصاف مظلومهم من ظالمهم، والأخذ من شريفهم بالحق لحاملهم وقد رجاك أمير المؤمنين لذلك لفقهك وعدلك وخيرك وحسبك وعلمك وتجربتك، فعليك باتقاء الله –عز وجل– وحده لا شريك له، وإيثار الحق على ما سواه، وليكن جميع الناس: قوّيهم وضعيفهم في الحق عندك سواء» [1].

وكان من أسباب اختيار الخليفة الأموي لهذا العالم لتولّي خطة القضاء والحكومة، هو اتصافه بالعلم والفقه والشريعة والتجربة الطويلة والأخلاق الرفيعة.

والرسالة صادرة من الخليفة الأموي وهي بالتالي من هيئة رسمية عليا وهي في الوقت نفسه خطاب تكليف، حيث ذكّره بالمهام الجسيمة والمسؤولية الملقاة على عاتقه من خلال حفظ أموال المسلمين ودمائهم والتقاضي بين الناس بكتاب الله وسنة نبيه كما حث الخليفة في ختام الرسالة، القاضي والفقيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم على تقوى الله والحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم.

ولأنّ خطاب التكليف صادر من سلطة عليا فقد كثر فيه الطابع الإلزامي (الأمر) مثل قوله (الذبّ–إنصاف–الأخذ–فعليك–إيثارُ –وليكن) وعادة ما يذكرّه بقوله: (ولاّك–أسند–حمّلك–رجاك) وكان الفقيه عبد الرحمن بن زياد أنعم المعافري وهو أول مولود يولد في الإسلام بعج فتح إفريقية (94-95هـ-161هـ) شاعرا بالإضافة إلى خطته في الحكومة والقضاء وله أبيات شعرية ذكرها الدباغ القيرواني في المعالم[2] قالها بعد أنا هاجه الشوق إلى مدينة القيروان:

–ذكـــرتُ القـــيروان فهـــاج شـــوقي	وأيـــن القـــيروان مـــن العـــراقِ
–مســـيرةُ أشـــهر للبعـــير نصّـــا	وللخيـــل المضـــمرة العتـــاقِ
–فـــأبلغ أنعمـــا وبـــنى أبيـــه	وجـــدّ بنـــا المســـير إلى مـــزاقِ

وتحدثنا المصادر التاريخية أنه لما تمّ فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد وتحت امرة موسى بن نصير (19-98هـ) ولى ابنه عبد العزيز وقفل راجعا إلى إفريقية سنة (95هـ) وجلس في مجلسه بقصر الماء وجاءته الوفود والمهنئون فقال لأصحابه: أصبحت اليوم في ثلاث نعم منها: كتاب أمير المؤمنين بالشكر

[1] _ المالكي: رياض النفوس، ج2، ص 159-160.

[2] _ المصدر نفسه، ص 202.

والثناء، ثم كتاب ابني عبد العزيز يصف ما فتح الله عليه من الأندلس [1].

ويخبرنا ابن عذاري في كتابه البيان المغرب عن أوجه النشاط الأدبي من خلال ما كتبه موسى بن نصير (86هـ-90هـ/707م-711م) إلى عبد العزيز بن مروان صاحب ملك مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان، حيث كتب له بما أفاء الله عليه من الفي وعلى أبنائه في إحدى معاركهم في إفريقية فردّ عليه الخليفة وقد عجب كلّ العجب من هذا الفي وامتلأ سرورا [2].

ولما استوفى موسى بن نصير فتوح الأندلس وإفريقية رحل إلى المشرق مع كل الفيء ورجاله حيث كتب إليه الوليد بن عبد الملك بالإسراع في المجيء لأنه قد أشرف على الموت ووصله كتاب آخر من أخيه وولي عهده سليمان بن عبد الملك يأمره بالتأنّي [3].

ولما زال ملك الأمويين من المشرق وتقلّد بنو العباس الحكم ولى أبو العباس السفّاح على إفريقية عبد الرحمن بن حبيب لأنه لما بلغته بيعة أبي العباس كتب إليه بالسمع والطاعة فأقرّه [4]ثم لما صار الأمر إلى أبي جعفر المنصور خلع طاعته وكتب إليه إن إفريقية اليوم إسلامية كلّها وقد انقطع السبب عنها فغضب أبو جعفر وكتب ليه يتوعده [5].

ولا يحسن بنا الحديث عن الحياة الأدبية في المغرب الكبير في هذه الفترة دون التنويه بالدور الكبير الذي لعبته الأسرة المهلبية التي دام حكمها على إفريقية ثلاثا وعشرين سنة.

وانتهت بمقتل الفضل بن روح سنة (178هـ) وهو أحد أفرادها[6]. وكان الألمعيّ فيهم الأديب والوالي على إفريقية يزيد بن حاتم الذي شجّع الأدباء والشعراء بدعوات رسمية أو برغبات فردية وأغدق عليهم العطاء، وامتحه كثير من الشعراء الفحول فأجزل عطائهم، ومما قيل فيه:

يا واحـــد العـــرب الـــذي دانـــت لـــه قحطـــــان قاطبـــــة وســـــاد نـــــزارا

---

[1] _ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص44.

[2] _ المصدر نفسه: ص 40.

[3] _ المصدر نفسه: ص 45.

[4] _ المصدر نفسه: ص 64.

[5] _ المصدر نفسه: ص 67.

[6] _ بن عذاري: البيان، المغرب، ج1، ص 86.

إني لأرجـــــو إذا بلغتُـــــكَ ســـــالِما ألاّ أكابـــــد بعـــــدكَ الأســـــفارا[1]

وقد وصفه غير واحد ممّن عرضوا له بأنّه شاعر، ويُروى أنّ أصحابه قد دخلوا عليه وهو ضاحك فتوقفوا عن تعزيته فعرف ذلك منهم فأنشأ يقول:

وإذّا لقـــومٌ مـــا تفـــيضُ دمُوعنـــا علـــى هالـــك منَّـــا وإنْ قُصِـــمَ الظَّهـــرُ

وبلغ من تعظيمه وتشجيعه لأهل العلم والأدب أنه بعث لكاتبه ثلاثين ألف درهم، ووَّقع إليه: «إنّي بعثتُ، إليكَ بكذا لا أستقلُّها لك تكبُّرًا، ولا أستكثرها تمُّننا، ولا أقطعُ عنك بها رجاءً بعد والسلام» [2].

ومن شعر يزيد بن حاتم هذا (توفي سنة 171هـ):

مـــا يألـــف الـــدرهم المضـــروب خرقتنـــا إلاّ لمامـــــــا يســـــــير ثمّ ينطلـــــــق

يمـــــرّ مـــــرّا عليهـــــا وهـــــي تلفظـــــه إني امـــرؤ لم يحـــالف خـــرقتي الـــورق[3].

يشار إلى أن الرسائل الإخوانية كذلك كان لها حضورها اللّافت فقد أورد المالكي رسالتين كتبهما الفقيه أبو يزيد رباح بن يزيد اللّخمي (توفي قبل 170هـ) إلى صديقيه الفقيه البهلول بن راشد (ت183هـ) وعبد الله بن فرّوخ (ت175هـ) إلى صديقيه البهلول بن راشد (ت 183هـ) وعبد الله بن فرّوخ (ت175هـ) في أسلوب جميل وعبارات فنية تعبّر عن روح وثقافة العصر [4].

ولا يستقيم الحديث عن الفنون النثرية في عصر الولاة دون ذكر الوصية والذي عرفه الأدب في هذه الفترة، فقد ذكر ابن عذاري المراكشي أن عقبة بن نافع حينما استخلف علي القيروان، زهيري بن قيس البلوي دعا أولاده وأوصاهم قائلا:

«إني قد بعت نفسي من الله عزو جل، وعزمت على من كفر به حتى أقتل فيه، وألحق به، ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا؟ لأنّ أملي الموت في سبيل الله ثم قال عليكم سلام الله اللّهم تقبّل نفسي في رضاك»[5].

---

[1] _ المصدر نفسه: ص 79-80.

[2] _ المصدر نفسه: ص 84.

[3] _ المصدر نفسه: ص 81.

[4] _ رياض النفوس: ج، ص

[5] _ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص23، 24 وقد وردت عند الدباغ القيرواني بصيغة أخرى ينظر: معالم الإيمان، م1/1/ص 75، 76

محاضرات في
الأدب المغربي القديم

تخصص: أدب عربي قديم

سنة ثانية ماستر

المجموعة الثانية

الأفواج: 3 ،4

د. منصف شلي

المحاضرة الرابعة

الحياة الأدبية في عهد الدولة الأغلبية

(184هـ-296م/800-909م)

1_توطئة تاريخية: بعد نهاية حكم الأسرة المهلبية في إفريقية الذي استمر لأكثر من ثلاث وعشرين سنة، وبعد أن حاول بعض الطامعين و المنتزين بحكم إفريقية من ولاّتها الاستقلال بحُكم إفريقية والخروج من عباءة العباسيين الذين كانوا مشغولين في الشرق بمحاربة خصومهم السياسيين ومناوئيهم من العلويين وغيرهم، عادت إفريقية والمغرب الكبير إلى الحكم العباسي إلى حدود منطقة شلف الجزائرية.

ويرجع اهتمام العباسيين بشؤون ولاية إفريقية التي تشمل إفريقية و طرابس والزاب لكونها صمّام الأمان لحدود الدولة الغربية بعد أن ظهر خصومهم من البيت الأموي في الأندلس.

وكان آخر واليين على إفريقية قبل مجيء الأغالبة هما: هرثمة بن أعين (180-181هـ) الذي غادرها بعد التاريخ المذكور وعاد إلى بغداد[1] ثم تولّى بعده حكم إفريقية محمد بن مقاتل العكي سنة (181هـ) والذي لم يسر في الناس سيرة حسنة وكثرت في فترة حكمه القلائل والفتن إلى أن قُتل في حديث طويل ذكره المؤرخون[2].

دخلت إفريقية عهد الفتنة المبُيرة بين قادة الجند وبعض المعارضين الذين لم يرتضوا سيرة محمد بن مقاتل العكي، ظهر إبراهيم بن الأغلب على مسرح الأحداث السياسية في إفريقية، وقد كان عاملا على الزاب (في الجزائر) للعباسيين سنة (180هـ)[3] ونال ثقتهم كما نالها أبوه من قبل.

ولهذا فقد حصل إبراهيم بن الأغلب على التقدير والولاية على إفريقية من قبل الرشيد نتيجة خدمته للعباسيين ونجاحه في الكيد للأدارسة.

كما جعل السلطة العباسية في بغداد تفكّر في إسناد حدودها الغربية في إفريقية إلى هذا الرجل صاحب التجربة السياسية والولاء للعباسيين.

وقد وصله عهد الرشيد سنة (184هـ) وقال فيه: «وقد تقدّم لكم بإفريقية أمر » وكان الرشيد ولاّه

---

[1] _ابن الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، ص124 وما بعدها. ابن وردان: تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق: محمد زينهم عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1408هـ/1988م، ص52-53.

[2] _ الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، ص123. ابن الأبّار: الحُلّة السِّيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، مصر، ج1، ص88-89.

[3] _ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص154.

بلاد الزاب وهي بلاد الجريد [1]. فقام بالخطبة لبني العباس على المنابر ورفع شعار بني العباس ودفع الخراج ونقش اسم الخليفة على السكة، وبدأ عهد جديد في شمال إفريقية مع قيام دولة الأغالبة.

«وتحتلّ المرحلة الأغلبية مكانة ممتازة في التطور التاريخي لكيان إفريقية الجديد المتولّد عن الفتح العربي» [2].

2–عوامل ازدهار الحياة الثقافية والأدبية في الدولة الأغلبية:

كانت مراكز العلم منتشرة في كل ربوع إفريقية والمغرب الكبير بعد الفتح الإسلامي وخاصة في القرن الثاني الهجري، ومع قيام الدولة الأغلبية ازدادت هذه المراكز في الحواضر والمدن قامت بموازاتها حركة نشطة في البناء والعمران والتشييد، فأصبحت مدن الدولة دار صناعة وتجارة وحرف وفنون.

وقد لعب حكّام الدولة الأغلبية دورا كبيرا في معركة البناء والتشييد والازدهار والتطور وعلى الصّعيد كافة، حيث حدّدوا ووسّعوا مسجدي القيروان (مسجد عقبة بن نافع ومسجد الزيتونة).

وتعدّ فترة حكم إبراهيم بن الأغلب (184هـ-196هـ/800-811م)، وابنه زيادة الله الأول (201-223هـ/816-837م) من أزهى فترات الحكم الأغلبي، حيث ساد الرخّاء الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي ونشطت حركة العلم والثقافة واستقرّت الأمصار وفتحت في زمن زيادة الأول صقلية بقيادة الفقيه أسبن الفرات سنة (213هـ او 214هـ) [3].

ولم تكن الحياة العلمية والثقافية والفكرية في العصر الأغلبي لتزدهر لولا وجود أسباب وعوامل–إضافة إلى ما سبق –أدت إلى قيام هذه النهضة العلمية منها:

–ميراث عصر الولاة الأولى (27هـ-86هـ) والثاني (86هـ-184هـ/705-800م) والذي يعدّ بمثابة عهد التأسيس العلمي والثقافي والأدبي في كامل ربوع المغرب الكبير وإفريقية.

فعلى يد الرعيل الأوّل تفتحت القرائح وشحنت الهمم وصقلت الأذهان وعلى مدار أكثر من قرن

---

[1] _ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 92/ ابن وردان: مملكة الأغالبة، ص 53، 54 .

[2] _ محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي، تعريب: المنجي الصياحي ص، تدقيق: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1415هـ/1995م ص 10.

[3] _ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 96-97 وما بعدها / ابن وردان: مملكة الأغالبة، ص 55.

ونصف من الزمان حصل تطوّر حضاري مسّ كل البنى في المغرب الكبير (الاجتماعية-الاقتصادية-الحضارية) مع دخول الإسلام واستغراب أهله ونتيجة لتوالي الهجرات وتغيّر الخارطة الديموغرافية للمغرب الكبير.

وكذا بناء الحواضر والمدن مع تأسيس المساجد التي لها دور كبير على المستويين الديني والثقافي والاجتماعي حيث كانت تلقى فيها دروس العلوم والفنون والآداب واللغة إضافة إلى العلوم الشرعية.

- التواصل الحضاري والثقافي مع المشرق الذي كان يمدّ المغرب الكبير بكلّ مواد الحضارة والبناء ناهيك عن استقرار الطبقة الأرستقراطية من العرب في المغرب الكبير وما حملته من تأثيرات حضارية مثل: أسرة المهالبة التي كان لها دور كبير في نشر الثقافة وازدهار الحياة الأدبية.

- قيام مدرسة مالكية وطيدة الأركان تلك التي أسسها تلاميذ الامام مالك –رحمه الله- (توفي سنة 240هـ) زمن الأغالبة حيث كان لها أعظم أثر في ازدهار الدراسات الشرعية والأدبية واللغوية على حدّ سواء. وقد حفظ لنا التاريخ الثقافي والأدبي في المغرب الكبير عديد الأسماء من الفقهاء الشعراء.

مثل: محمد بن عبد الله الكناني (أبو محرز) الذي نبغ في اللغة والشعر رغم ميوله الفقهية، والشاعر الجزائري بكر بن حماد التاهرتي (ت 296هـ/908م) الشاعر الفقيه الذي أخذ العلم في مدرسة القيروان المالكية وأبو جعفر أحمد بن داود الربعي الصوّاف (توفي سنة 291هـ)[1].

وأبو عقال غلبون بن الحسن بن غلبون (توفي سنة 291هـ) [2] وأبو عبد الله محمد بن زرزر (ت 291هـ) الذي كان عالما بمذاهب أهل الكوفة وبجميع الأقوال، وكان حافظا للغريب بصيرا بالعربية ورواية الشعر يحسن الصنعة لها جيّد القول فيها وشعره كثير جدّا وأكثره في توحيد الله عز وجل والردّ على الزنادقة والملحدين والكذّابين[3] وأبو حميس جعفر القطّان (289هـ) [4]. وأبو الاحوص أحمد بن عبد الله (ت 284هـ) [5].

---

[1] _ المالكي: رياض النفوس، ج1، ص 410.

[2] _ المصدر نفسه: ص 532.

[3] _ المصدر نفسه: ص 515.

[4] _ المصدر نفسه: ص 490.

[5] _ المصدر نفسه: ص 483.

كانت الحركة الأدبية في العصر الأغلبي نشطة وفعالة وأهمّ من مثّلها وأسهم في تفعيلها هم حُكّام الدولة الأغلبية أنفسهم. بدءا من مؤسّس دولتهم ومجدهم المؤثلّ إبراهيم بن الأغلب (184-196هـ/800-811م) والذي كان كما وصف حافظا للقرآن عالما به [1]. وكان فقيها عالما أديبا شاعرا خطيبا كثير الطلب للعلم والاختلاف إلى اللبن بن سعد الفقيه[2] ومن جميل شعره ما قاله شوقا إلى أهله وقد خلّفهم في مصر وقصد الزّاب (جنوب الجزائر) لبعض شأنه:

ما سرتُ ميلا ولا جاوزت مرحلة إلاّ وذكرك يثني ذائبا عنقي

ولا ذكرتك إلاّ بتُّ مرتفقا أرعى النجوم كأنّ الموت معتنقي[3].

وكان ابنه زيادة الله الأول (201-223هـ/816-837م) عالما مثقفا وشاعرا مفلّقا حيث كان أفضل أهل بيته وأفصحهم لسانا وأكثرهم بيانا وكان يعرب كلامه ولا يلحن...ويصوغ الشعر الجيد» [4].

ومن جميل شعره قوله:

أنا النار في أحجارها مستكنة فإن كنت ممّن يقدح الزند فاقدح.

أنا الليث يحمي غيلة بزئيره فإن كنت كلبا موتك فانبح.

أنا البحر في أمواجه وعبابه فإن كنت ممّن يسبح فاسبع[5].

وقد أورد ابن الأبار القضاعي البلنسي (هـ) أبياتا في النسيب:

بالله لا تقطعن أنفاسي فأنت تملك إنطاقي وإخراسي.

صدود طرفك عن طرفي إذا التقيا مجرّعي كأس إرغام وإتعاسي.

لو لم أبحك حمى قلبي ترود به لم تستبح مهجتي يا أملح الناس[6].

-وقد حفظت له المصادر شعرا كثيرا فمن ذلك قوله في تفاحة:

ولابسة ثوب اصفرار بلا جسم تنمّ بأنفاس الحبيب لمشتمّ

---

[1] _ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 93.

[2] _ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص 93.

[3] _ المصدر نفسه: ص 94.

[4] _ المصدر نفسه: ص 163.

[5] _ المصدر نفسه: ص 165.

[6] _ المصدر نفسه: ص 167.

تجمّـــع معشـــوق لـــديها وعاشـــق فـــذو نظـــر يرنـــو إليهـــا وذو شـــمّ
ســـأفنيك أو أفـــنى عليـــك تـــذكرا لمـــن أنـــت لـــه عطـــرٌ فيـــه في الرّشـــق واللّـــثم[1].

وكان في بلاد الأمير زيادة الله الأول هذا جملة من فحول الشعراء منهم:

عبد الرحمن وعلي ابني سلمة وأبو العزاف والشاعر يعقوب بن يحيى.

وكان الأمير الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب (أبو عقال)، (223-226هـ/837-840م).

له حظ من الأدب يصوغ به مقطعات من الشعر فمنها قوله:

لـــه مقلـــةٌ تكفيـــه حمـــل ســـلاحه محاربـــة ألحاظهـــا مـــن تســـالمه
ســـقى صـــبّه مـــن خمرهـــا فبـــدابها كمـــا تفعـــل الصّـــهباء مـــا هـــو كاتمـــه
وقـــد ســـكرت أجفانهـــا فكأنّمـــا ســـقيه مـــن صـــهبائها وتنادمـــه [2].

وكان ابنه الأمير محمد (أبو العباس) مثله (226-242هـ/840-856م)

شاعرا وهو صاحب القصيدة الفخرية الشهيرة والتي أوردها ابن الأبار في حلّته منها:

ألـــيس أبي وجـــدّي أوطـــاني وجـــدّ أبي وعمّـــامي-الرّقـــابا
ورثـــتُ الملـــك والســـلطان عـــنهم فصـــرتُ أعـــزّ مـــن وطـــيء الـــترابا
وقـــدّمني الخلائـــفُ واصـــطفوني فمـــن مثلـــي قـــديما وانتســـابا
أنا الملـــك الـــذي أسمـــو بنفســـي فـــأبلغ بالســـموّ بهـــا الســـحابا... [3].

وهذا آخر منهم واسمه عبد الله بن إبراهيم بن أحمد وكنيته (أبوالعباس) (289-290هـ/ 902-903م) كان عاقلا أديبا عالما له نظر في الجدل وعناية باللغة والآداب[4].

أمّا ابنه زيادة الله الثالث (أبو مضر) (290-296هـ/903-906م) وهو خاتمة ملوك الأغالبة والذي قتله الفاطميون وملكوا إفريقية [5]. فقد كان شاعرا وله شعر ذكره له الصّولي في كتاب

---

[1] _ المصدر نفسه: الصفحة نفسها

[2] _ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص 168، 169.

[3] _ المصدر نفسه: ص 170.

[4] _ المصدر نفسه: ص 174.

[5] _ المصدر نفسه: ص 175.

الوزراء[1].وكان في بلاطه صاحب البريد عبد الله بن الصائغ ت296هـ) أعظم شعراء العصر الأغلبي قاطبة "وكان شاعرا مجيدا" [2].

ولم يكن حظّ النساء في البيت الأغلبي من الأدب والشعر بأقلّ من حظّ الرجال حيث كانت الأميرة الأغلبية مهرية بنت الحسن بن غلبون التميمي، التي نشأت في أواسط القرن الثاني الهجري، وتلقت تعليما ممتازا في ذلك العصر حتى أتقنت العربية ونبغت في القريض فاشتهرت في زمانها بالأدب ومن شعرها ترثي أخاها بمقال قولها:

ليت شعري ما الذي عانيته ... بعد طول الصوم مع نقي الوسن
مع غروب النفس على أوطانها ... والتخلّي عن حبيب وسكن
يا وحيدا ليس من وجدي به ... غلّة تمنعني من أن أجن
فكما بتلى وجوه في الثرى ... فكذا يبلى عليهم الحزن[3].

ومن أبرز شعراء هذه الفترة كذلك: إسحاق بن عمران وأحمد الجزار، وأبو مالك بن الطرماح الذي تخصّص في أكثر من فن شعري.

وما يلاحظ على الشعر العربي في عهد الدولة الأغلبية أنه سار في طريق الاتجاه التقليدي حيث كتب الشعراء في أغراض شتى: فمن الشعر السياسي إلى الهجاء الذي يتداخل مع الفخر أحيانا إلى شعر الشوق والحنين.

وكان الاتجاه الزهدي وشعر الحكمة أبرز سمات الشعر في هذا العصر وقد ظهر بتأثير من الحياة الدينية وخاصة المدرسة المالكية في القيروان والتي لعبت دورا كبيرا في توجيه الشعر في هذه الفترة.

وتبقى السمة الأبرز في الشعر الأغلبي هي مراثي الفقهاء للفقهاء ومراثي العلماء بعضهم بعضا، ويكفي القارئ أن يطلع علي مصادر مثل: كتاب رياض النفوس للمالكي القيرواني ومعلم الإيمان للدّباغ القيرواني حتى يعجب لتلك الفوائد النفيسة التي أبدعها الفقهاء والعلماء من مختلف الطبقات.

فمن أبرز الأمثلة على شعر الزهد والحكمة ما قاله الفقيه سعيد الحدّاد (ت302هـ):

---

[1] _ المصدر نفسه: ص 178.

[2] _ المصدر نفسه: ص 177.

[3] _المالكي: رياض النفوس، ج1، ص 538.

يمنعـــني مـــن عيـــب غـــيري الـــذي أعلمـــــــه فيّ مـــــــن العيـــــــب
عيـــبي لهـــم بالظـــن ضـــني لهـــم لســـــت مـــــن عيـــبي في ريـــــب.
إن كـــــان عيـــبي غـــــاب عـــــنهم فقـــد أحصـــى ذنـــوبي عـــالم الغيـــب[1].

ومن شعر الفقيه أبي جعفر أحمد بن أبي سليمان داوود الصّواف (ت 291هـ):

ســـــألبس للصـــــبر ثـــــوبا جمـــــيلا وأفتـــــل للضـــــجر حـــــبلا طـــــويلا
-وأصـــــــبر بالـــــــرّغم لا بالرضـــــــا أخلّـــــص نفســـــي قلـــــيلا قلـــــيلا

وقال:

لـــــذّة قصـــــرت وطـــــال بلاؤهـــــا عنـــــد التـــــذكّر في الزمـــــان الأوّل
لمـــــا يتـــــذكّرها وقـــــال ندامـــــة مـــــن بعـــــدها يا ليـــــني لم أفعـــــل [2].

ومن أمثلة مرائي الفقهاء للفقهاء ما روي أنه لما توفي الفقيه عبد الرحيم بن عبد ربه (ت 247هـ) قيل فيه جملة من المرائي، منهم حاتم الجبيناني المعبد الذي قال:

لهفـــي علـــى عبـــد الـــرحيم وفضـــله حـــتى الممـــات بكـــلّ قلـــب يســـتعر.
مـــا كـــان أتقـــاه وأحســـن أمـــره في الله يســـعى قـــد تشـــمّر وآتّـــزر
أمـــا النهـــار فصـــائم متهجّـــد والليـــل يهتـــف بالقـــرآن إلى الســـحر[3].

ولما توفي أبو عبد الله محمد بن سحنون الفقيه المالكي سنة (256هـ) رثاه جماعة من الفقهاء منهم أحمد بن أبي سليمان بقصيدة فيها ثلاثمائة بيت من الشعر منها:

ألا فابـــك للإســـلام إن كنـــت باكيـــا لحبـــل مـــن الإســـلام أصـــبح واهيـــا.
تـــثلّم حصـــن الـــدين ركنـــه عشـــية أمـــس في المقـــابر ثاويا
إمـــام حبـــاه الله فضـــلا وحكمـــة وفقـــه في الـــدين كهـــلا وناشـــيدا [4].

---

[1] _ المالكي: رياض النفوس: ج2، ص 98.
[2] _ المصدر نفسه: ج1، ص 508.
[3] _ المصدر نفسه: ، ج1، ص 430.
[4] _ المصدر نفسه: ص 455 وما بعدها.

ونشطت الحياة النثرية كذلك وازدهرت في هذا العصر وبلغت شأوا بعيدا وذلك بازدهار وتطور الحياة الاجتماعية والسياسية في الدولة الأغلبية حيث كثرت المرسلات الرسمية بين مختلف أفراد الطبقة السياسية والديوان الأميري ورؤساء وقادة الجند.

فقد عرف البلاط الأغلبي كتبة مهرة تقلدّوا هذه الوظيفة السامية منهم ابن الصائغ المذكور آنفا والذي كان كاتبا في الديوان الأغلبي عند إبراهيم الثاني [1].

كما نعثر على بغيتنا في أديب مثل عبد الملك بن قطن الفهري (ت 225هـ) صاحب البلاغة الظاهرة والكتابات الجميلة وقد حفظ لنا الدباغ القيرواني في المعالم قولا بليغا له حينما عاد الفقيه بن غانم في مرضه حيث دعا له بالشفاء [2].

والفقيه أحمد الصواف وقد ذكرت له مقطعة نثرية جميلة في نصيحة طلب العلم.

وأبو سليمان ربيع بن عطاء الله القطّان الذي كان يؤلف الخطب والرسائل ونشطت حركة التأليف في هذا العصر نشاطا رهيبا فمن أبرز الوجوه العلمية والأدبية الأمير محمد بن زيادة الله الثاني (ت 283هـ/896م) وكان رجلا ظريفا مثقفا لبيبا، وربما أريبا وصفه ابن الأبّار بأنه أديبّ ظريف حيث صنّف كتابين في الأدب (راحة القلب) و(كتاب الزهر) وأيضا (تاريخ بني الأغلب).

ويمكن القول إجمالا إن الكتابة النثرية في عصر الدولة الأغلبية قد تراوحت بين الأساليب النثرية العادية والنثر الفني التأليفي والنثر الفني الأدبي.

---

[1] _ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص 189.

[2] _ م1/1/ ص 253.

محاضرات في
الأدب المغربي القديم

تخصص: أدب عربي قديم

سنة ثانية ماستر

المجموعة الثانية

الأفواج: 3 ،4

د. منصف شلي

المحاضرة الخامسة

الحياة الأدبية في عهد الدولة الصنهاجية

(362–555هـ/972–1160م)

1-توطئة تاريخية: تعدّ الدولة الصنهاجية الزيرية من الدول البربرية الأولى التي قامت في إفريقية والمغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي.

وبداية الأمر أنه وبعد خروج الفاطميين العبيديين من المغربين (الأوسط والأدنى)إلى مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، تركوا هذه الرقعة الجغرافية الشاسعة والمهمة والتي كانت مهدا لدولتهم ودعوتهم للقائمين بالأمر من الأسرة الزيرية الصنهاجية والذين كانوا يحكمون هذه البلاد باسمهم.

حيث قام الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي سنة (362هـ-972م):باستخلاف أول أمراء بني زيري بلكّين يوسف بن زيري على حكم إفريقية بعد أن عزم الرحيل إلى مصر، بعد أن قضى قائده العسكري جوهر الصقلي على حكم الإخشيدي في مصر وضمّها للحكم العبيدي، وبنى مدينة القاهرة لتكون عاصمة للدولة الفاطمية بدلا من مدينة المهدية بتونس.

تكنّى ببلكّين بن زيري باسم (أبو الفتوح) وتلقّب بألقاب شرفية على الطريقة العربية مثل: (عدّة العزيز بالله-سيف العزيز بالله-سيف الدولة).

انصرف جهد أمراء بني زيري الثلاثة الأوائل: أبو الفتوح يوسف بلكّين بن زيري بن منّاد الصنهاجي (362هـ-373هـ/973-983م) وابنه المنصور بن يوسف (373-386هـ/984-996م) وباديس بن المنصور (386-406هـ/996-1015م) في تثبيت حكم العبيديين في محاولة لبسطه في كل ربوع إفريقية ولهذا فإن المغرب الأوسط كان مسرحا للحروب المستمرة والطويلة التي خاضها الأمراء الثلاثة لأجل هذه القضية. قبل أن يخرج المغرب الأوسط من سلطانهم مع تأسيس قلعة بني حماد في سنة (398هـ/1007م) وبالاعتراف بالدولة الحمادية بتاريخ (408هـ/1017م) بواسطة معاهدة كانت الإمارة الصنهاجية تحت السيادة الفاطمية في حدود إفريقية التونسية وشطرا من شرق الجزائر تضم قسنطينة حتى حدود المسيلة[*] .

[*]- حول تاريخ أسرة بني زيري الصنهاجيين، ينظر: ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج1، ص 296 وما بعدها.
وانظر الدراسة القيمة التي كتبها الهادي روجي إدريس: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر للميلاد، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1ن 1992م.

وكان تحوّل الحكم في هذه الأسرة مع الأمير الرابع: المعز بن باديس الصنهاجي (406-453هـ/1015-1061م) –رحمه الله–نقطة أساسية في تحوّل الطابع السياسي العام والديني في إفريقية وفي ربوع المغرب الكبير، حينما أعلن تخلّيه عن المذهب الشيعي ورجوعه إلى المذهب السني المالكي الذي دان به أجداده من قبل، وقطع الخطبة عن الفاطميين وأعلن ولاءه للخليفة العباسي وأقام السّنة، وانتصر لصحابة رسول الله كما أزال الفاطميين من السّكة[1] كان ذلك بتأثير من الفقيه أبي الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني (426هـ-1035م) الذي كان متقلّدا لديوان المعز بن باديس الصنهاجي وكان مختصّا به.

واستمرّ حكم الزيريين من نسل المعز بن باديس فكان ابنه تميم (453-501هـ/1061-1108م) ويحيى بن تميمي (501-509هـ/1107-1115م) فعلي بن يحيى(509-515هـ/1115-1121م) والحسن بن علي بن يحيى (515-543هـ/1121-1148م) والذي كان آخر أمراء بن زيري بعد أن حلّ القحط بإفريقية واستغلّ ملك صقلية ذلك فجهزّ أسطولا كبيرا وتوجّه نحو مدينة المهدية فدخلها دون قتال وكانت نهاية هذه الدولة حكم هذه الأسرة[2].

2-الحياة الأدبية في الدولة الصنهاجية وأسباب الازدهار:

عرفت الحياة الثقافية والفكرية والأدبية في عهد بني زيري الصنهاجيين ازدهارا حقيقيا على كل المستويات المعرفية، ومردّ ذلك إلى جملة من الأسباب والعوامل التي ساعدت على ذلك منها:

– التطور السياسي للمغرب الكبير خاصة في هذه الفترة، أو حتى في الفترات السابقة وما اعقب ذلك من ازدهار ثقافي وأدبي.

– الميراث العلمي والثقافي والحضاري العظيم الذي حازته الدولة الصنهاجية من خلال العصور السياسية والدول السابقة في إفريقية والمغرب الكبير عموما وبدءا من عصر الولاة، الدولة الأغلبية، الرسمية، الإدريسية، الدول الفاطمية، ففي ظل هذه الأنظمة السياسية السابقة تأسّست

---

[1] _ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 277، 278.

[2] _ المصدر نفسه: ص 301.

الثقافة العربية والإسلامية وتفتحت براعم الأدب في المغرب الكبير وازدهرت.

– الرخاء الاقتصادي للمغرب الكبير بعد معركة البناء والتعمير التي خاضتها الأنظمة السياسية على حكم المغرب الكبير خاصة الأوسط والأدنى واستجابته من مواد الحضارة، ناهيك عن اتساع طبيعة الإقليم وتنوعها كل ذلك شّكل مصدرا مهما للاستقرار والإبداع.

– استفادة الدولة الصنهاجية من الدول الإسلامية المجاورة (الأندلس وصقلية) وكذا من المشرق من خلال التجاور الثقافي والتواصل المعرفي.

– تعريب الإدارة والدواوين على نطاق واسع وعلى مدار مئات السنين، حيث أصبح للدواوين كتاب رسميون، مما استدعى أداء وظائفهم كمستكتبين وكتابة الرسائل في لغة سليمة ومتأنقة.

– وجود مراكز حضرية متفاوتة الحجم والأهمية حيث ازدهرت فيها الحياة الأدبية والعلمية والثقافة وكل ما يمتّ إلى الحضارة بصلة ممّا كان له عظمي الأثر في مجال التربية والتعليم وفي الحياة الفنية كذلك. ومثال ذلك: مدينة القيروان–المسيلة– مدنية المهدية التي أسسها الفاطميون سنة (303هـ–916م) وصبرة المنصورية كذلك التي أسّس من قبلهم سنة (337هـ/994م) أو بونة وقسنطينة وغيرهما.

– ازدهار الحياة الدينية في المغرب الكبير من خلال المدارس الفقهية والمذاهب الفكرية. فقد أصبحت المدرسة الفقهية المالكية التي أسسها تلاميذ مالك–رحمه الله– في إفريقية وطيدة الأركان عند سحنون وتلاميذه كما ظهر مع الفاطميين المذهب الشيعي.

وصار لكلّ مذهب أو تيار مناصروه ومدافعون عنه من الفقهاء أو الشعراء والكتّاب وغيرهم.

– نشوء أرستقراطية أو طبقة أرستقراطية قوامها الثقافة العربية وفي كلّ الدويلات أو الأعصر السياسية التي سبقت الدولة الصنهاجية في حكم المغرب، وداخل البلاط في حواضر مثل: صبرة المنصورية–والمهدية–القيروان–المسيلة وغيرها.

ومن أمثلة هذه الأسر: أشراف بيت النبوة ممّن دخلوا حواضر إفريقية، الأسر العربية والبربرية الكبرى وحتى من أبناء البيات الصنهاجي أنفسهم ورؤساء بني هلال فيما بعد، إضافة إلى تلك الطبقة البرجوازية ذات الثراء الواسع والمنتشرة في مختلف حواضر الدولة الصنهاجية والتي صنعت المشهد الثقافي والأدبيّ وشجعت على ذلك.

3-مظاهر الحياة الأدبية عند الصنهاجيين:

وسيعجز الباحث لا محالة في تفصيل الحياة الأدبية (شعرا ونثرا ونقدا) في العهد الصنهاجي لما سيصيبه من الذهول بسبب كثرة النماذج الأدبية والفنية والأعلام وإحصائه مختلف التيارات الأدبية والفكرية في هذا العصر.

ويمكن القول إجمالا إن الحياة الأدبية بإفريقية الصنهاجية قد كانت على درجة كبيرة من الرقي والازدهار، حيث نمت سريعا وانتشرت في كل حواضر الدولة تقريبا.

والتي شهدت أدبا أرستقراطيا أنتجته طبقة الكتّاب والأدباء والشعراء والأشراف والنبلاء.

فقد ظلت القيروان مختلفة بدورها الريادي والحضاري والثقافي حتى عصور متأخرة.

وكان الشاعر والناقد الجزائري ابن رشيق المسيلي أحد الأعلام الذين استوطنوها في عهد الزيريين حتى نسب إليها. ووجد حظوة عند أهوائها، وأرّخ لكثير من شعرائها في هذه الفترة من خلال كتابه الشهير (أنموذج الزمان في شعراء القيروان) والذي أرّخ فيه لمائة شاعر وشاعرة [3]. وبخصوبة الحياة الأدبية نجده: يصنّف كتابا آخر هو (العهد في صناعة الشعر ونقده).

وكانت حاضرة صبرة المنصورية (بنسبة إلى مؤسسها الخليفة الفاطمي المنصور الذي أسسها عام 337هـ-949م) مقرّ حكم الصنهاجيين وإقامتهم كما كانت من قبل لدى الفاطميين، وبصبرة هذه توفي إبراهيم الحصري سنة (413هـ/1022م) صاحب كتاب (زهر الآداب)، وبهذه الحاضرة كانت تلك المساجلات الشعرية اتلي يثيرها المعز بين شعرائه وبصبرة هذه كانت القصور المنيفة وكل مظاهر الاحتفالات والمواكب والمناسبات التي أقامها الملوك والخلفاء وحواشيهم.

---

[3] _ ابن بسام الأندلسي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1417/1997هـ، ق2/4، ص 599.

إضافة إلى مدن أخرى قريبة من القيروان مثل: العباسية–رقّادة–سردانية وقرى أخرى مثل: الحُصر–خشن–صدف.

ففي رقادة أقام المنصور وباديس من بني زيري وبنى بها الأوّل مصلّى وجامعا.

وكان الشعراء والأدباء يرافقونهم أثناء إقامتهم.

وقد أنجبت (الحصر) الحصريين ابراهيم صاحب زهر الآداب، وعلي الحصري القيرواني الضرير (ت 488هـ) كان أديبا، شاعرا، عالما بالقرآن وله منظومة في قراءة نافع، وهو صاحب الموشّح الشهير (يا ليل الصبّ متى عده) [4].

وبقرية (خُشن) كان مجلس ابن البقال وهو الشاعر المعروف بالخشني، وبقرية (صدف) كان الشاعر الصدفي.

وكانت المجالس والمنتديات الأدبية والفكرية في هذه الفترة من أهم مظاهر الحياة الثقافية والأدبية في الدولة الصنهاجية، مثل مجلس عبد الوهاب الحاجب (المتوفي سنة 387هـ/997م) ويسمّى عبد الوهاب بن الحسين بن جعفر الكاتب، الذي تولّى خطة الحجابة للأمراء الأوائل من بني زيري وكان قصره بصيرة المنصورية ملتقى الأدباء والمغنيين المشاهير على وجه الخصوص.

وكان الشاعر أبو لقمان الصّفار من جيل ابن رشيق القيرواني وقد ذكره في الأنموذج له دكان يمتهن فيه التجارة وهو أشبه بالمنتدى الشعري حيث تجري فيه المفاكهات الشعرية والمعارضات خاصة مع بعض مرتاديه من أمثال الشاعر عبد الملك بن محمد التميمي القيرواني المعروف بالدركادو [5].

وكان الشاعر والطيب علي ابن أحمد والشهير بابن ماعز (توفي بعد سنة 408هـ/1017م) وجها من الوجوه الثقافية والعلمية البارزة داخل الأوساط الفكرية في عهد الدولة الصنهاجية وكثيرا

---

[4] _ المصدر نفسه: ص ر584 وما بعدها.

[5] _ أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمعه وحققه: محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس 1406هـ/1986م، ص 434-438.

ما كان مجلسه ملتقى للأدباء والشعراء [6].

وكان أشهر المحدثين في تلك الفترة أبو الحسن القاسي (324-403هـ/935-1012م) كفيفا يتخذ له مجلسا في قرية بجوار قابس ويأتيه الطلاّب من كلّ حدب وصوب، وهو كفيف يتخذ له مجلسا في قرية بجوار قابس ويأتيه الطلاب من كلّ حدب وصوب، وهو الذي أسهم في نشر صحيح البخاري في إفريقية كلّها وألّف كتابا هو ملخص لمسند موطأ الإمام مالك –رحمه الله– وهو صاحب الرسالة الشهيرة (الرسالة المفصّلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين). والتي تعد الأولى في بابها في الثقافة العربية والإسلامية في العصر الوسيط.

وقد أسهمت النساء كذلك في صنع المشهد الثقافي والأدبي في العهد الصنهاجي فمنهنّ الأميرة أم ملال الملقبة بالسيدة وهي مستشارة أخيها باديس والقيّمة على شؤون المملكة كلّها وفاطمة الحاضنة مرضعة الأمير باديس وكانت نصرانية وأسلمت ودرّة الكاتبة وهي معلمة فاطمة ومنهن: الشاعرة خدوج لخديجة بنت أحمد بن كلثوم) وهي شاعرة حاذقة مشهورة بذلك ولها ترسّل لا يقع مثله، إلاّ لحذّاق ....) [7].

ولا ينبغي أن نضرب صفحا عن جهود علماء اللغة الأفارقة في عهد الدولة الصنهاجية وما ألّفوه ومدارسهم التي خرّجت مئات التلاميذ والأعلام الذين أسهموا في تقويم اللسان العربي وكان لهم دوّر فعال في الحركة النقدية في هذه الفترة.

منهم: أبو عبد الله بن جعفر التميمي القيرواني القزّاز (ت سنة 412هـ) وكان بارعا في علوم اللغة: والنحو والقراءات وهو صاحب المؤلفات الشهيرة مثل: (ما يجوز للشاعر في الضرورة) وأبو الفضل بن النحوي يوسف بن محمد (ت 513هـ/1120م) والذي توفي في الجزائر.

وأبو طاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي البرقي كان حيا سنة (441هـ/1049م) اللغوي الشهير صاحب كتاب (المختار عن شعر بشار، اختيار الخالدين) وكتاب (الرائق في أزهار الحدائق).

---

[6] _ المصدر نفسه: ص 270-272.

[7] _ المصدر نفسه: ص 123-125.

وأبو الفضل محمد بن عبد الواحد التميمي الدرامي (388-455هـ-1063م) الذي جاء بإفريقية إلى بلاط المعز بن باديس الصنهاجي مكلفا بمهمة من الخليفة العباس القيام، وزار الجزائر زمن الحماديين، وهو أول من أدخل كتاب الثعالبي (ت 429هـ) (يتيمة الدهر).

كما استقطب بلاط المعز الأديب النحوي، اللغوي ابن خلدون الحروري (ت 430هـ/1038م) وابن الربيب القاضي التاهرتي الأصل (ت 420هـ/1029م) تلميذ القزاز القيرواني وصاحب الرسالة الشهيرة التي استفزّت علماء الأندلس، وكان ممّن ردّ عليه الإمام ابن حزم الأندلسي (456هـ) صاحب "رسالة في فضل الأندلس" ولا يحسن الحديث عن البلاط الصنهاجي في هذه الفترة دون ذكر واحد من مثقفي عصره وهو أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الشهير باسم الرقيق القيرواني مدوّن الأخبار الصنهاجية، وكاتب الأمراء الثلاثة الصنهاجيين (المنصور-باديس-المعز) وصاحب المؤلفات الشهيرة مثل: (تاريخ إفريقية والمغرب-كتاب الاختصار البارع للتاريخ الجامع-نظم السلوك في مسايرة أو مسامرة الملوك-قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور-كتاب الأغاني-كتاب المتيمن).

والرقيق القيرواني هذا هو شاعر باديس ورئيس الإنشاء في الدولة الصنهاجية لمدة خمس وعشرين سنة وهو واحد من الكتّاب الذين اشتهروا في البلاط الصنهاجي، ومنهم عبد الواحد بن فتوح الزوّاق (ت447هـ/1056م) الذي انتظم في سلك كتّاب الدواوين، إلى جانب ابن أبي الحديدة (450هـ/1058م) أحد الكتّاب النابهين في الدولة الصنهاجية حيث ظلّ يعمل فيها بجوار ابن رشيق وابن شرف القيرواني وإبراهيم بن غانم الكاتب القيرواني الشهير (ت 421هـ).

أما في ميدان الشعر فيعزّ على الباحث حصر المشهورين منهم، فما بالك بغيرهم.

ولا يعوزنا التذكير بأشهرهم في هذه الفترة مثل ابن شرف القيرواني (390/460هـ) صاحب المؤلفات (أبكار الأفكار-مسائل الانتقاد-أعلام الكلام) وابن رشيق القيرواني (ت 456هـ/1063م) وعبد الكريم النهشلي (405هـ/1014م) صاحب كتاب (الممتع في علم الشعر وعمله).

وابن البغدادي عبد الله بن محمد شاعر المعز بن باديس والحداد الخولاني

(485هـ/1092م) المعروف باسم الحداد المهدوي من شعراء البلاط الصنهاجي وأحد الشعراء والمثقفين النابهين في هذه الفترة حتى حكم الأمير تميم الصنهاجي وابن الفكّاه أبو القاسم عبد الخالف الذي غادر إفريقية بعد الزحفة الهلالية ومدح الناصر جلّناس (454هـ-481هـ) ونضيره الحلواني الشاعر أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيرواني الذي خرج من القيروان كذلك بعد الزحفة الهلالية.

وهذا ابن غانم أبو إسماعيل الشاعر (ت 421هـ/1030م) وقد اشتهر بالمواعظ في شعره إلى جانب المديح.

والملاحظ على النتاج الأدبي في عهد بن زيري هو غلبة الطابع الشعري على النتاج النثري وأنّ كل الناثرين أنفسهم كانوا شعراء، وخاصّة من كتّاب الديوان وقلّة منهم من تميز بالفن النثري وحده.

أما بالنسبة للشعر فهو ينحو منحى تقليديا كما هو نظيره المشرقي، ونظرة فاحصة حول التراث الشعري في هذه الفترة حتى يدرك القارئ ذلك في غير عناء فالأغراض الشعرية نفسها: المديح، الوصف، الرثاء، الهجاء، الفخر، النسيب، وغيرها من أغراض الشعر العربي القديمة. يستثنى من ذلك الرثاء حيث رثى شعراء الفترة الصنهاجية المدن والحواضر المخرّبة بفعل الزحفة الهلالية الشهيرة، أو رثاء العلماء والفقهاء والصالحين، وتطالعنا في الوصف مواضيع جديدة مثل وصف السفن والأساطيل ووصف القصور وغيرها. ولكن لا ننسى أن المغرب الكبير في الدولة الصنهاجية قد عرف الموشحات وقد أسلف القول فيها علي الحصري الضرير صاحب الموشحات الشهيرة.